﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ تَتِمَّةٌ لبشارة الملائكة لمريم في أوصاف عيسى عليه السلام فبعد أن بشَّرتها الملائكة بوجاهته في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه من المُقرَّبين؛ زادوها بشارة، فبيَّنوا لها هنا أحدَ أهمِّ الخوارق والمُعجزات التي سيجريها الله للموهوب، فقال: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾: جذر الكلمة هو: (مهد)، والمَهْدُ: الموضِع يُهَيَّأُ؛ لينامَ فيه الصَّبيُّ في رضاعه[1]، وأصلُه: مصدرٌ سمِّيَ به، يُقَالُ: مهَّدتُ لنفسي - بتخفيف الهَاءِ وتشديدهَا - أي: وطأت، ويقال: أمهد الشيء: ارتفع[2]، والمِهادُ: اسمٌ أجمعُ من المَهْدِ، كالأرضِ جَعَلها الله مِهادًا للعِباد، وجَمْعُ المِهاد: مُهُدٌ، ومَهَّدْتُ لنفسي خيرًا، أي: هيَّأتُهُ، ووطَّأتُهُ[3]، ومن المجاز: مَهَّدَ الأمرَ: وَطَّأَهُ، وسوَّاه، ومهَّد العذر تمهيدًا، ومهَّد له منزلة سنيَّة، وما امتهد فلانٌ عندي مهد ذاك، أي: ما قدَّم وسيلةً فيما يطلبه، وماءٌ مُمَهَّدٌ: فاترٌ ليس ببارد ولا سخنٍ[4].

2) ﴿وَكَهۡلٗا﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (كهل)، الكَهْلُ: مَن حَلَّ به الشَّيبُ[5]. والكَهْلُ: الذي وَخَطَهُ الشَّيْب، ورأيتَ له بَجَالةً (مَهابة ورفعة في المقام)[6]، ورجلٌ كَهْلٌ، وامرأة كَهْلَةٌ، وقلَّ: ما يُقال للمرأةِ كَهْلَة، إلَّا أن يقولوا: شَهْلَةٌ كَهْلَةٌ، وهو من أربعة وثلاثين إلى إحدى وخمسين[7]، واكْتَهلَتِ الرَّوضةُ؛ إذا عمَّها نَوْرُها[8]. ومن المجاز: هو كافل أهله، وكاهلهم،

(1) الخليل، العَين: (مهد).
(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/156.
(3) الخليل، العَين: (مهد).
(4) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاَغة: مادّة (مهد).
(5) القيعي، الأصلان في علوم القُرآن، ص: 223.
(6) الخليل، العَين: والرَّاغبُ، المفردات: وابن سيده، المحكم (كهل).
(7) ابن سيده، المحكم (كهل).
(8) الخليل، العَين: (كهل).

وهو الذي يعتمدونه، شبّه بالكاهل واحد: الكواهل، واكتهل النَّباتُ: تمَّ طوله وتكهَّل، ونبات كهل[1]، واكْتَهَلَ النَّباتُ أيضًا؛ إذا شارف اليبوسة مشارفة الْكَهْلِ الشَّيبَ، [2]، والخلاصة أنَّ الكهل بين الشَّاب والشَّيخ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومن آيات البِشارة بالمسيح عليه السلام ومن المعجزاتِ التي بشَّرتْ بها الملائكةُ مريمَ عليها السلام أنَّه يُكلِّمُ النَّاس وهو رضيعٌ - في المهد بكلام الأنبياء - قبل أوان الكلام؛ لإظهار طهارة أمِّه، مِمَّا رماها به أهلُ الفِرْية من القذف، وهو قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: 30]، ويدعو النَّاسَ إلى الله وهو كبير قد اجتمعت قوَّته وكمُل شبابه بما أوحاه الله إليه، وهذا تكليم النبوَّة والدعوة والإرشاد، وهو معدودٌ من أهل الصَّلاحِ والفضلِ في قوله وعمله، وهي صفةٌ عامَّةٌ في الأنبياء، فلولا مقامهم العالي في الصَّلاح؛ لما استحقُّوا درجةَ النُّبوَّة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّعبير عن التكليم بالمضارع:

استحضار المعجزة للتأثير في المخاطبين في كلِّ زمنٍ للإقرار بقدرة الله

التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ يدلُّ على استحضار الحالة الماضية، وكأنَّ المعجزة حدثت الآن، وفي استحضار الحدث الماضي أثر بالغ في قدرة الله - عزَّ وعلا - على تحقيق ما يريد بغير الأسباب المعهودة، فكما قدر على خلق عيسى بلا أب، فهو على إنطاقه رضيعًا بكلام الأنبياء أقدر.

بلاغة المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾:

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، أي: بعضَهم ممّن شهدوا الحدَث، وفيه مجازٌ مرسلٌ حيث ذكر الكلَّ، وأراد الجزء؛ فالعلاقة الكليَّة، وفي المجاز المرسل هنا: دلالة على قوَّة المعجزة وتأثيرها في الناس

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاغة: (كهل).
(2) الراغب، المفردات، 727 - 728.
(3) الخازن، لباب التأويل: 1/348، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 56.

جميعًا، فكلُّ مَن آمن بالله أيقنَ بهذه المعجزة، وكلُّ المسلمين يؤمنون بهذه المعجزة؛ لأنَّهم خوطبوا بها في القرآن، كما خوطب بها أهل زمانها، فالتَّعبير بالمجاز دلَّ على قوَّة المعجزة وعظمة تأثيرها بأسلوب وجيز.

بيانُ التَّعبير الكنائيِّ في قوله: ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾:

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾، أي: حال كونه في المهد، فالمهد مقرُّ الصَّبيِّ في رضاعه، وأصله: مصدر سمِّي به، وكما قال الحَرَالِّي: "هو موطن الهدوء والسُّكون المتحسَّس اللَّطيف الذي يكونُ بذلك السُّكون والهدوء قوامُهُ"[1].

سرُّ الطِّباق في لفظي: ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ ، و﴿وَكَهْلًا﴾ :

بين لفظي ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ و﴿وَكَهْلًا﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ طباقٌ خفيٌّ، فالمهد كناية عن مرحلة الرّضاع، فهو يكلِّم النَّاس رضيعًا؛ إعجازًا، ويكلّمهم كهلًا؛ وحيًا، فهو المتكلّم عن الله في الحالين، والطِّباق هنا يتضمَّن أسرارًا غزيرة، وبدائع لطيفة، فذِكْر الطَّرفين يدلُّ على شمول الرِّعاية الإلهيَّة للمسيح عليه السلام في كلِّ أحواله، وفائدة الطِّباق ذِكر المرحلتين المبتدأ والمنتهى؛ تأكيدًا على ما بينهما من المراحل، وخصَّ تكليم عيسى عليه السلام بحالين: حال كونه في المهد، وحال كونه كَهلًا، مع أنَّه يتَكَلَّم فيما بين ذلك؛ لأنَّ لذينك الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إيَّاه، فأمَّا تكليمه النَّاس في المهد؛ فلأنَّه خارق عادة إرهاصًا لنبوءته، وأمَّا تكليمهم كَهلًا؛ فمراد به دعوته النَّاس إلى الشَّريعة[2].

وفي هذا الطِّباق دلالة على تغيُّر أحواله مع الزَّمن[3]، وهو إشارة إلى تقلُّبِ الأحوال عليه، وردٌّ على النَّصارى في دعواهم ألوهيَّته، وفي

لا يُقْصَدُ بالمعجزة الحاضرون وقت التكليم، بل يُقْصَدُ كلّ النّاس في كلّ الأزمنة

العناية بالرضيع من صورها إمهاد مكانه، والعناية بمرقده، وتوفير الراحة له

وجه الطباق شمول الرِّعاية الإلهيَّة للمسيح عليه السلام كلَّ أحوالِه في البدء، والمنتهى

في الطِّباق إخبار عن تغيُّر أحواله، وتقلّب أطوار عمره، وفيه نفيٌ لألوهيته

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/398.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 3/247.
(3) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 1/282.

ذكر أحواله المختلفة المتنافية إرشادٌ إلى أنَّه بمعزل عن الألوهيَّة[1]، فذكر ذلك قبل أن يخلقه إعلامًا به أنَّه سيكتهل، فإذا أخبرتْ به مريم؛ عُلِمَ أنَّه من علم الغيب[2].

بلاغة التَّسوية بين المتعاطفين:

وجه التَّسوية بين المتعاطفين دفع التوهّم، وإزالة الاستغراب

في قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ تسويةٌ بين المتعاطفين لدفع التوهّم، وإزالة الاستغراب. قال البيضاوي: " والمعنى تكلّمهم في الطفولة، والكهولة على سواء، والمعنى إلحاقُ حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتَّكلُّم، وبه استدلّ على أنه سينزل فإنه رُفع قبل أن يكتهل"[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، بشارة من اللَّه تعالى لمريم أنَّ عيسى يبقى إلى حال الكهولة، وقيل: إنَّ كَهلًا، أي: ينزل من السماءِ لقتل الدَّجَّال، وهو كهل[4]، وبشّرها بطول حياتها بقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾، أي: بعد نزوله من السَّماء في آخر الزَّمان، ويكون كلامه في الحالتين – حال كونه طفلًا وكَهلًا – كلام الأنبياء من غير تفاوت[5].

وجه الاحتراس دفع توهّم ما أملته العادة من أنّ المتكلّم في المهد لا يعيش

وقال الزَّمخشريُّ: معناه: وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، ويُنَبَّأ فيها الأنبياء[6].

فنُّ الاحتراس في ذِكر لفظ (الكهولة):

قال الزركشي: " وإنّما ذكر الكهولة مع أنّه لا إعجاز فيه لأنّه كان

(1) البَيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/17. أبو السِّعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 2/37.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 3/156.
(3) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/149.
(4) الزَّجَّاج، معاني القُرآن: 1/412.
(5) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/17، والبِقَاعيُّ، نظم الدُّرر: 2/89.
(6) الزَّمخشريُّ، الكَشَّاف: 1/391.

في العادة أنّ من يتكلم في المهد أنّه لا يعيش ولا يتمادى به العمر فجُعل الاحتراس بقوله: ﴿وَكَهۡلٗا﴾"[1].

وجه إيثار لفظ (الكهل):

إيثار الكهولة؛ لأنها عُمْرُ استحكام العقل وجودة الرأي، وبشارة بأنّه سيعيشها

والكهل الحليم، لقوّة عقله وإدراكه وتجربته. ولذلك خُصَّ هذا السِّنِّ في الآية دون سائر العمر؛ لأنّه سنُّ استحكام العقل وجودة الرأي، وفي قوله: وكهلاً، تبشير بأنّه يعيش إلى سن الكهولة[2].

سرُّ القيد بالحال في الفاصلة:

دلّتِ الحال على صلاحه في كلِّ أحواله، وأكّدت أهميَّة صفة الصلاح في الأنبياء

صفة النُّبوَّة تتضمَّن كلَّ محاسن الأخلاق وأعلاها، غير أنَّ النظم الكريم نصَّ عليها هنا، إعلاءً لشأنها كما أنَّها مرتبطة برسالتهم اتِّصالًا وثيقًا؛ فرسالتهم الإصلاح، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: 88].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حالٌ ثالثةٌ من ﴿وَيُكَلِّمُ﴾، وهذه الحال دالَّة على صلاحه في كلِّ أحواله، وفي ذلك تأكيد للبشارة، فهي محيطة بأمره شاملة لآخر عمره، كما كان مقارنًا لأوَّله.

(1) الزركشي، البرهان: 3/67.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 2/483.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»